

العشائر النسطورية في كردستان نشأتها وعلاقتها بالأكراد ١٨٥٠-١٩١٤

م.د. علي طالب عبيد السلطاني

كلية الإمام الكاظم (عليه السلام) للعلوم الإسلامية الجامعة/ أقسام بابل

The Nestorian tribes arise and relation with Kurds 1850-1914

Dr. Ali Talib Obeed

Al-Kadhim College for Science Islamic – Babylon Parts

Alialsultany1970@gmail.com

Abstract

The Nestorian clans lived and lived on an egne footing with their neighboring Kurdish tribes in the embrae of the ottoman empire and also the Islamic world and the Christian were obedient and oppressed and often lived in the arms However in later stages1914, and tradition of the neigh boring kurds they are a bit on fighting, and the works of voadsetor the convicted parties(Kurdish and Nestorians).

Key words: Tribes, Nostorian, Rise, Relation, Kurds.

المخلص

سكنت العشائر النسطورية وعاشت على قدم المساواة مع القبائل الكردية المجاورة لها في أحضان الإمبراطورية العثمانية وأيضاً العالم الإسلامي، وكان هؤلاء المسيحيين مطيعين وغالباً ما عاشوا منزوعي السلاح، إلا أنهم وفي مراحل لاحقة وتقليداً للأكراد المجاورين لهم بدأوا يتعودون على القتال، وقد إنعزل النساطرة في حياتهم عن العالم، وسكنوا جبال حكاري وتلك المحيطة بها أو القريبة منها، بفضل سكانها المسيحيين والذين اختفى وجود أو كاد أن يختفي منذ عام ١٩١٤، فسكان هذه المناطق اليوم أغلبيتهم من الأكراد. وعلى الرغم من أن منطقة حكاري لا يجوز عدّها أرضاً مجهولة، برغم إختفاء حضور سكانها الأصليين فقد بقي فيها كل من الطرفين المتنافسين(الكرد، والنسطوري).

المقدمة

استوطنت جماهير النساطرة المعروفين بالعشيرت جبال حكاري الشاهقة ذات الوديان المرعبة، والطرق والمسالك في تلك الجبال عصية بسبب ما يتخللها من أكوام الحجارة والصخور التي جرفتها السيول، وفي تلك المناطق الموحشة انتشرت جماعات من اللصوص اتخذت قطاع الطرق على المسافرين مهنة أساسية لها، ولهذا كان الأمن نادراً والطمأنينة شبه معدومة. وفي تلك المناطق عاش النساطرة جنباً إلى جنب مع جيرانهم الأكراد، ولم يكونوا خاضعين للخدمة العسكرية الإجبارية في الجيش العثماني، كما إن جُباة الضرائب في الإمبراطورية العثمانية كانوا غير قادرين على التغلغل في المناطق التي كانت تسكنها جماهير النساطرة العشيرت، وجماهير النساطرة التي رغبت الإبتعاد عن تلك الجبال الشماء، ولم تتمتع حياة العشائر الشطورية بما يشبه الإستقلال، ولذا تميزت حياتها بنوع من الخنوع والدّل وعرفت بالرايا، واعتمدت حياة هذه الجماهير على الزراعة والفلاحة، كما مارست عشائر العشيرت نوعاً من الوصاية والحماية لعشائر الرايا عندما تكون مهددة بالغزو أو حملات النهب، وفي مقابل ذلك كانت عشائر الرايا تضمن لعشائر العشيرت فرصة الحصول على بعض الخدمات الحياتية المهمة، كالمساح لقطعان الماشية الخاصة بالعشيرت بالرعي في مراعي الأكراد الذين كانوا يحتمون بظلمهم، وبلغ مجموع العشائر النسطورية من النوعين(العشيرت والرايا)، بحدود مائة ألف نسمة، وأبرز هذه العشائر(تياري العليا والسفلى، وتخوما، وجيلو، وباز وديز)، وقسمت طبقات مجتمع هذه العشائر على(الرعاة، والمزارعين، والطبقة الحاكمة أو المتنفذة).

يتناول البحث العشائر النسطورية بشكل عام، فضلاً عن الحديث عن الجبلين المسيحيين سكان حكاري بشكل خاص، إذ أن منطقة حكاري المسيحية قديماً، لايجوز عدّها أرضاً مجهولة، برغم إختفاء حضور سكانها الأصليين، فالطرفين المتنافسين(الكرد

والنسطوري)، ظلّوا ولمدة قاربت على القرن من الزمن يحاولون ومن خلال البراهين والشهادات المؤكدة إثبات أنهم أبناء سكان هذه المناطق الأصليين، وبإمكانهم العيش فيها وفي جميع الأوقات.

ونظراً للغياب التام للتوثيق الإداري الرسمي، فقد اعتمدنا على المرحلة التاريخية (١٨٥٠-١٩١٤) موضوع البحث في كون أن النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبفضل التحسن الكبير الحاصل في وسائل النقل وسهولة الانتقال بالنسبة إلى السفر البحري، كان قد شهد وصول الرحالة والمبشرين إلى مناطق سكن النساطرة.

أولاً: موطن العشائر النسطورية

واجهت عملية تحديد موقع وإماكن التي سكنها النساطرة مشكلة حقيقية، وحتى نهاية القرن التاسع عشر، إذ إن أغلب المعلومات والخرائط التي أعتمدها الرحالة والمؤلفون كانت غير وافية وغير دقيقة، لاسيما مشكلة تأشير أسماء تلك المواقع والأماكن، بسبب اختلاف وتعدد اللغات التي تقرأ بها هذه الأسماء كالتركية والكردية والعربية والفارسية، فضلاً عن لغة السورث الخاصة بالنساطرة^(١)، وعاشت جماهير النساطرة مآسي القرن العشرين في مناطق كانت تقع ضمن أراضي هي اليوم داخل حدود تركيا وإيران الحالية^(٢).

إن قلب بلاد (وطن) النساطرة يتكون من الأراضي التي سكنتها ست من العشائر المستقلة، من بينها عشيرتا (تياري وجيلو)، التي انقسمت إلى فرعين، ويرأس كل عشيرة من تلك العشائر أو فرع من عشيرة رئيس يسمى (ملك)^(٣). وجميع تلك العشائر هي تحت سلطة البطريك، وهنا لا نعني به الناحية الدينية فقط بل أيضاً السلطة المدنية والسياسية، والبطريك يقيم عادة في قرية قوجانيس، التي يتجه موقعها نحو الشرق، وهي القلب النابض للعشائر النسطورية والهدف الذي يقصده الزوار والغزباء، وتقع على ارتفاع ألف متر على قمة جبل مطلة على كل ما حولها من الحقول الزراعية والأشجار الكثيفة، وعلى الجانبين يجري نهران صغيران يصبان في نهر الزاب الكبير، وموقع قوجانيس كان بعيداً ومنعزلاً عن مناطق سكن العشائر، إذ أن المسافة الفاصلة بينهما تتجاوز العشرين كيلومتر^(٤). والبطريك الذي تحدثنا عنه في أعلاه، هو الرئيس الأعلى لكنيسة المشرق (الكنيسة النسطورية) الرسولية، ويمثل الحلقة الأخيرة في سلسلة البطارقة الطويلة، والتي بدايتها كانت بمار توما الرسول، وتمتعت هذه الكنيسة بتاريخ حافل يمتد عبر عشرين قرناً ويحتوي على صفحات مشرقة وأخرى مظلمة ولمراحل تاريخية متباينة^(٥).

ويخترق نهر الزاب الكبير أراضي العشائر النسطورية باستثناء منطقة عشيرة تياري، التي أصبحت هي الوحيدة الواقعة أراضيها بأجمعها على الضفة اليمنى من هذا النهر، وتشكل هذه الأراضي رقعة جغرافية هي على شكل شريط مستطيل يمتد مسافة (٨٠ كيلومتراً)، واتجاهه شرقي غربي وماراً عبر كتل جبل سات داغ ووصولاً إلى ذرى القمم المسيطرة على أسيثا في الغرب^(٦)، وعرض هذا الشريط لا يتجاوز في حده الأكبر (٢٠ كيلومتراً)، فيما عدا منطقتي أراضي تياري العليا وتياري السفلى، التي تجري عبرها عدة روافد وأنهار صغيرة في الجهة اليمنى من نهر الزاب الكبير، وتكون منطقة سكن كل عشيرة نسطورية مكونة من جزء من وادٍ ومن حوض مجرى رافد صغير يصب في نهر الزاب الكبير، وهكذا روافده غالباً ما تكون مصباتها في مختنقات أو مضائق عاصية وغير مأهولة بالسكان، وهكذا كانت مواطن النساطرة وديان بين جبال أو سفوح يصعب الوصول إليها محاطة بمجار مائية تشكل حدوداً طبيعية وعاش النساطرة في الملاجئ الآمنة منعزلين عن العالم الخارجي^(٧).

(١) السورث هي اللغة التي تحدثت بها النساطرة سواء كانوا أولئك الذين سكنوا الجبال أو السهول القريبة من تلك الجبال، كما أنها اللغة التي تكلم بها أيضاً اليهود الذين عاشوا بأعداد كبيرة في منطقة كردستان، هذا باستثناء المسيحيين الكلدان الذين عاشوا في مدينة الموصل وغيرها من المدن الكبيرة، أي المستعربين حديثي العهد، ومما يجدر ذكره هنا هو أن المستعربين حديثي العهد سمو السورث (بفليحي)، أي لغة الفلاحين القرويين للمزيد ينظر:

William.M. Ramsay, Impressions of Turkey during twelve years wanderings, London, 1897, Vol. 6, p. 296.

(٢) ميشيل شفالبييه، المسيحيون في حكاري وكردستان الشمالية (الكلدان والسريان والآشوريون والأرمن)، ترجمة نافع توماس، مراجعة وتقديم الأب د. يوسف توما مرقص، بغداد، شركة الأطلس للطباعة المحدودة، ٢٠١٠، ص ٦٦.

(٣) ديفيد رايلي، الطريق الوعر عبر الزاب، نقله إلى العربية محمد رازق، بيروت، مطبعة رسائل العلم، ١٩٧٨، ص ٥٦.

(٤) ميشيل شفالبييه، المصدر السابق، ص ٦٧.

(٥) مصطفى أحمد السباعي، الصلات بين المنصرين السفراء والقناصل والمترجمين، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ٨٤.

(٦) ميشيل شفالبييه، المصدر السابق، ص ٦٨.

والى الغرب من الحدود التركبية الفارسية يظهر وبشكل مباشر الخط الفاصل بين مناطق الأرمن والناطقة، والتغيرات بين هذين الشعبين ظهرت بوضوح وبصورة استثنائية ومكونة من وحدات من الجغرافية الطبيعية، فللناطقة الجبال العالية ذات المضائق العاصية حيث تنبسط المراعي التي ترعى فيها مواشهم، أما الأرمن فلمهم الهضبة المرتفعة ذات الطبيعة الملائمة للزراعة، وتتجزء تلك الهضبة بسلاسل الجبال^(١). والخلاف الواضح بين الشعبين أدهش العديد من الرحالة^(٢)، وهذا الاختلاف يتمثل في التقاء نهر الزاب الكبير من جهة الشمال بنهر (ناحل)، ثم حوض (الباغ)، وبعد ذلك تأتي القرى النسطورية في الموقع بعد القرى الأرمنية، وهنا سيلاحظ الاختلاف في طريقة بناء البيوت^(٣).

وبالرجوع الى العشائر النسطورية الست (تياري العليا والسفلى، وتخوما، وجيلو، وياز، وديز)، نجد أن عشيرة تياري هي العشيرة الوحيدة التي عاشت في موطن موقعه مغاير لموطن وعيش العشائر الأخرى، إذ يقع موطن عشيرة تياري على الضفة اليمنى من نهر الزاب الكبير، ومجموع أبناء هذه العشيرة يمثل لوحدة حوالي نصف المجموع الكلي لمجموع أبناء العشائر الباقية كلة أو أكثر^(٤). وتتقسم هذه العشيرة إلى فرعين لكنهما غير متكافئين بالأهمية وغير متساويين بالعدد، فالفرع الأول والذي يعرف (تياري العليا)، يختلف عن الفرع الآخر الذي يعرف (تياري السفلى)، والأخير عددياً هو ضعف الأول، ولا اتصال بين أراضي الفرعين إلا عن طريق مضيق يمر خلاله نهر الزاب الكبير^(٥). وتشغل عشيرة تياري السفلى الجزء الجنوبي من حكاري التركية، وهذا الجزء وقبل كل شيء لا يقع على الضفة اليمنى من الزاب الكبير، وكان يضم في بدايات القرن العشرين بحدود (٢٥ قرية)، مقسمة إلى خمسة قطاعات تقع في أسفل نهر (مياي عزاني Miyab Izani)، والذي يسمى في الوقت الحالي باسم (سيفي كاسراني Seri Kasraan)، على الحدود التركية الإيرانية، وهو يجري في الجهة اليمنى من الزاب الكبير وبتجاه يقارب أن يكون شرقياً غربياً^(٦). وأكبر القرى التي تعود لعشيرة تياري السفلى هي القرية الكبرى (أشيئا)، والتي يطلق عليها بالتركية اسم (أسوتا Asuta)، وهذه التسمية تعني بلغة الناطقة لغة السورث، وتعني (الركام الجوفي)^(٧). وتعد أشيئا تقليدياً قلعة الأرتدوكسية النسطورية^(٨). ويبلغ عدد نفوس تياري السفلى بحدود (١٥ ألف) نسمة، منهم بحدود (٢٣٠٠ نسمة) يعودون إلى جماعة الرايا، آخذين بنظر الإعتبار أن هذه الأرقام ليست أرقام دقيقة تماماً، وإنما هي تخمينات لمشاهدات اغلب الرحالة والمبشرون الذين زاروا ووصلوا إلى هذه المناطق، والذين وضعوا معدلاً يتراوح بين ستة أو سبعة أشخاص للعائلة الواحدة^(٩).

ويحدد موطن سكن عشيرة تياري العليا وحدها بحدود (١٥ قرية)، جميعها تقع في أعماق وديان تقع على الضفة اليمنى من نهر الزاب الكبير، وامتداد مواقعها يكون من شمال ليزان إلى زوراوا الواقعة إلى الأسفل من جولاميرك بقليل، وترتبط تلك القرى بقرى أخرى تعود لجماعات الرايا الساكنين في مواطن عشيرة والطو على الضفة اليسرى، وملك تياري العليا يقيم في منطقة تقع أسفل أراضي عشيرة تخوما على نهر الزاب الكبير قرب مزار (مار ساوا) الشهير^(١٠).

وسكنت عشيرة تخوما في الأراضي الواقعة على الضفة اليسرى من الزاب الكبير، وصعوداً مع مجراه نحو منطقة (سلاباكا Slabacie) المفصولة عن ذلك الموقع بمضيق ضيق جداً من جهة وعن وادي (هان ديريزي Han Deeryazi)، النازل من جنوب

(١) يوسف نسيم سوريا، محاضرات في المسيحية، روما (الفاتيكان)، مجلة الراهبات، العدد(٨)، ١٩٨٣، ص ٣٨.

(٢) من هؤلاء الرحالة، البريطاني لايارد، والأمريكي داريل فورد، والفرنسي جاك وكتر، وغيرهم. للمزيد ينظر: محمود سلامة، رحلات الشرق الأوسط دراسة اجتماعية وإقتصادية مقارنة، القاهرة، دار رومل للنشر، ١٩٨٥، ص ١٥٣.

(٣) إدورد ابغري، الأشوريون الذين في الشرق، تقديم إي. جي. اربيري، ترجمة شارل سميع، دبلن، ١٩٦٩، ص ٤٠٣.

(٤) سي. جي. ادموندز، كرد وترك وعرب، سياسية ورحلات وبحوث عن الشمال الشرقي من العراق ١٩١٤-١٩٢٥م، ترجمة جرجيس فتح الله، بغداد، ١٩٧١، ص ٢٠١.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٠٦.

(٦) دبليو إي. ويكرام وادكار. تي. إي. ويكرام، مهد البشرية (الحياة في شرق كردستان)، ترجمة جرجيس فتح الله، أربيل، ٢٠١٠، ص ١٠٧.

(٧) John Joseph, Nestoerns in fluence on their relations, Princeton, 1961, p. 68.

(٨) Ibid, P.66.

(٩) ديفيد رايلي، المصدر السابق، ص ١١٣؛ دبليو إي. ويكرام وادكار. تي. إي. ويكرام، المصدر السابق، ص ١٩١.

(١٠) J. Wagner, Travels in Persia, Georgia and Kurdistan, Vol.3, London, 1856, p.116.

غرب جبال جيلو من جهة أخرى، وعلى امتداد تلك الأراضي كانت تنتشر ست قرى بشكل متسلسل^(١)، ورئيس العشيرة (الملك)، يقيم في القرية الرئيسية من بين القرى الخمسة عشر وهي قرية (تخوما كوايا)، والتي يسكنها بحدود الألفي نسمة^(٢). ويقدر أفراد العشيرة بحدود (٥ آلاف نسمة)، موزعين على هذه القرى^(٣).

وتركز موطن عشيرة جيلو التي قد يكون أصل تسميتها راجع إلى اسم (جيلو Djelo)، أو (قيلو Cilo)، أو (جيليا زين Gelia Sin)، وهما مشتقان من المصدر نفسه، وهذه أسماء قمم جبلية مرتفعة تنافس قمة جبال (ريزقوه Rezeko)^(٤)، تركز في وسط المنطقة الواقعة على الجزء الجنوبي الشرقي من جبل جيلو، ثم تتجه نحو الشرق حيث هناك فتحة تفصل ما بين جبل جيلو وجبل سات داغ من جهة، وأعلى روبارسين من جهة أخرى، وتتصف هذه العشيرة بأنها العشيرة النسطورية الأقل شمولاً بالوصف والحديث عنها الأكثر غموضاً وغرابية، وذلك بسبب أن الرحالين والمبشرين كانوا أقل تردداً على مواطن سكناها مقارنة بمواطن سكن العشائر الأخرى، باعتبار أنها مناطق شبه تامة الإنعزال نظراً لما يحيطها من مرتفعات شاهقة وبخاصة تجاه أراضي بلاد فارس مقارنة بالجهات المواجهة للموصل^(٥)، فقد سميت جماهير النساطرة في مدينة الموصل بصورة عامة بـ(التيارين)، وكذلك بالمقابل سميت الجماهير نفسها في مدينة أورمية الفارسية بـ(الجيلاويين)^(٦).

وخلال القرن السابع عشر عاش في مدينة أورمية مطران اشتهر بكونه من عشيرة جيلو، إذ عثر على نص تاريخي مكتوب فيه: (أنه هناك رئيس أساقفة لجيلو وسلامس)^(٧)، وسكان تلك المنطقة كانوا يعيشون في فقر مدقع، وهو ما تأكده كثرة هجرة السكان للشحاذة^(٨).

(١) John Joseph, Op.Cit, p.74.

(٢) Morgan Phillips, A Journey Through Azerbaijan and Persian Kurdistan, London, 1895, p.309.

(٣) Ibid, P 311.

(٤) كانت جبال طوروس بالنسبة إلى عشائر النساطرة، وعلى مدى الأجيال ملجأً منيعاً لأن قممها ترتفع عن مستوى سطح البحر بمقدار (٤٠٠٠م)، وهذا الجزء من الجبال يُعد الجزء الأعلى من جبال طوروس، وعرفت القمة المسماة (ريزقوه)، والواقعة أحياناً ضمن جبال جيلو بـ(جيليازين)، وهذه القمة هي سقف جبال نركيا، أي أعلى قمة فيها باستثناء القمم البركانية في أرمينيا، وبين أحضان هذه الجبال السماء استقرت الأراضي التي سكنتها العشائر النسطورية، والتي يمكن تشبيهها بالكعكة التي توضع على الرأس عند حمل بعض المواد، ومحيطها يزيد على (١٥٠٠م). والجبال التي يحيط بها مفصولة عنها عند حوض بحيرة وان التي ارتفاعها يبلغ بحدود (١٦٤٠م)، وعن سهول نهر دجلة الوسطى والتي ارتفاعها بحدود (٣٠٠م) عند مدينة الموصل. والجدار الشاهق المحيط بهذه الأراضي يتكون من سلسلتين جبليتين تغطيها الثلوج أغلب أيام السنة، وتسمى جبال (جيلوداغ Gilodag) وارتفاعها يصل إلى (٤١٧٠م)، وجبال (سات داغ Sat Dag) وارتفاعها يصل إلى (٣٨١٠م). علماً أن تسمية جبال حكار هي تسمية حديثة، تم استعمالها في القرن التاسع عشر، وهي في الواقع تشمل جبال (جيلو داغ) و(سات داغ)، وامتدادتها الشرقية والغربية نحو وادي الزاب الكبير. للمزيد ينظر: A.W.Burr, Anotes on the Kurdistan, London, 1930, P.218-219.

(٥) جورج حبيب، بقايا دين قديم، ط٢، دمشق، دار مسناة للطباعة والنشر، ١٩٧٦، ص٩٣.

(٦) في أواسط النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كانت جماهير المسيحيين السريان الجليليين القاطنين بربوع كردستان، تعتنق العقيدة النسطورية بشكل أساسي، غير إنه وبعد انقضاء هذه المرحلة وباستثناء أولئك الذين سكنوا مناطق أورمية الفارسية، أخذ هذا الواقع في التغيير التنازلي، بسبب الضغط والتأثير الذين أجبروا كل هذه الجماهير على التخلي عن موطن سكنهم الأصلي، وعاد ذلك فأن قسماً كبيراً من النساطرة أخذ ينتمي عقائدياً للإيمان الكاثوليكي. للمزيد عن ذلك ينظر: Asahel Grant, Life in Kurdistan, Vol.2, NewYork, 1905, P.41.

(٧) إن منطقة الإكتضاض السكاني لجماهير النساطرة، هي بهيكلية معقدة فمن ناحية الشمال نجدها معزولة لوقوعها في قلب كردستان من جهة ومجرى نهر الزاب الكبير من جهة ثانية، وتبلغ مساحة هذه المنطقة بحدود (١٥٠٠م)، أما إقليم موطن العشائر النسطورية الستة المعروفة (العشيرات)، فيقع ضمن جبال شاهقة العلو، وأغلب سكانه نساطرة وتحيطه جبال عالية خاصة جزؤها المسمى (شمدينان)، الواقع في الجزء الجنوبي الشرقي من جبال (سات داغ). وكما يشمل سهول كافار وباشقلعة والأحواض المرتفعة والمنحدرة نحو بلاد فارس. وتحديداً نحو سلامس (سالماس). والثنيات الحدودية المعروفة (بيه خير Bieheir)، والواقعة غربي سعرت وبوتان وفي إقليم راوندوز، وعند المرور بمنطقة (البرواري) ووادي صينا والزيبار، نلاحظ أن جميع هذه المناطق هي ذات اكتضاض بقرى النساطرة المعروفين بالرايا (Raya)، وهم سكان السهول الذين لا يتبعون نظام العشيرات في حياتهم الاجتماعية. ومن ميزات سكان هذه القرى أنهم تعودوا التعايش مع جماهير الأكراد التي تسكن قرى قريبة من قرأهم. وانتشرت قرى جماعات الرايا وامتدت نحو الناحية الشمالية حتى وصلت هضبة أرمينيا وبلاد القوقاز الروسية. للمزيد ينظر: ب.ج. كيد، النساطرة الشرقيون مراحلهم المبكرة، ترجمة عزيز صقري، بيروت، مركز المفكر العلمي، ٢٠٠١، ص ١٣٣-١٣٥.

(٨) ان الهجرة الأكثر شمولية هي تلك التي حصلت لأبناء عشيرة جيلو. وكانت بسبب الفقر المدقع الذي يعيشونه، وذكر أحد الرحالة أنه وفي عام ١٨٥٠، رآهم يجوبون هضاب آسيا الصغرى (تركيا)، وسهول سورية ووصولاً إلى فلسطين شتاءً، وعلمهم ارتكز على حياكة السلال. وقيل حلول فصل الصيف رآهم يعودون إلى ديارهم في كردستان لإنجاز نشاطهم الزراعي (الحصاد) وجمع الغلال، ومن ثم حراثة الأرض وزراعتها لموسم قادم، وبسبب هذه الهجرة الموسمية استطاع هؤلاء المهاجرون تعلم اللغات (التركية، والعربية، والفارسية)، فضلاً عن ذلك فإن ارتباطهم الديني بكنيستهم أصبح أقل مما هو لدى أبناء العشائر النسطورية الأخرى. وفي نهاية القرن التاسع عشر كان أبناء عشيرة جيلو يذهبون للشحاذة جماعات جماعات، وكان ذلك عند حلول فصل الخريف، ووجهتهم كانت بلاد ما بين النهرين وبلاد فارس والقوقاز، وأحياناً كانوا يصلون إلى أوروبا، والجماعات الأجدد بالملاحظة هنا هي تلك المؤلفة من أشخاص يمثلون رجال دين مزيفين والمركز الرئيسي لهذه الجماعات كان يُعرف (مار ازي Mar Eze)، وهو مركز مطران جيلو حيث يقع المزار الشهير (مار زيا Mar zaia)، وبعض من هؤلاء الجماعات يغادرون لهذه المهمة وهم متكرين بزّي الكهنة، وأحياناً كانوا يحملون رسائل استشهادية ووثائقية

وكتب أحد المبشرين الذين وصلوا منطقة سكن عشيرة جيلو عند منتصف القرن التاسع عشر وهو المبشر بادجر، قائلاً: أن الأراضي التي كانت موطناً لعشيرة جيلو لاتشمل فقط الوادي الذي يجري فيه نهر (رودبار سين)، ذو المضيق الموحش باستثناء الجزء السفلي المجاور، بل أيضاً الأراضي التي يجري فيها رافدان أو ثلاثة صغيرة وكلها تقع على الضفة اليمنى من هذا النهر، وأكبر تلك الروافد هو (باز)، المركز الرئيسي لعشيرة باز، والواقعة في حوض هذا الرافد، وخاصة في الجهة العليا منه والتي تعرف بـ(جيلو الكبرى)^(١). واتصفت تلك المناطق بكونها منطقة ذات الجبال الأكثر علواً، ووصفت المنطقة بأنها منطقة موحشة بشكل غير طبيعي^(٢)، ويقيم ملك العشيرة (رئيسها) في أكبر قرأها وهي (زيرانى)، وبجواره يقيم المطران المسؤول عن المنطقة في القرية المعروفة بمزارها الشهير، والذي يحمل نفس اسم القرية التي تدعى قرية (مار زيا)^(٣).

وموطن عشيرة باز المعروفة بصغر حجمها، يقع جنوب غربي أراضي عشيرة جيلو، في حوض يجري فيه رافد يقع على الضفة اليمنى من رافد باز، وفي عام ١٨٥٠ كان يوجد في هذه المنطقة خمس قرى يبلغ عدد سكانها بحدود (٢٥٠٠ نسمة)^(٤). وأراضي موطن تلك العشيرة عبارة عن وادٍ صغير يسمى اليوم (كار سو Kar Su)، ويشغل هذا الوادي الجزء الشمالي من أراضي موطن عشيرة جيلو ويفضي في نهايته إلى الضفة اليسرى من الزاب الكبير^(٥)، أما موطن عشيرة ديز فلا يبعد كثيراً عن قوجانيس (مقر إقامة البطريرك النسطوري)، وتميز رجال تلك العشيرة بمسؤولية خاصة تمثلت بحماية البطريرك، ومن ناحية أخرى، لا بد أن تحدد الإشارة إلى أن البطريرك النسطوري سبق وأقام مدة من الزمن وقبل مذابح أواسط القرن التاسع التي تعرض لها النساطرة في أسفل وادي ديز وتحديداً في إحدى قرأها المعروفة بقرية (ريان عوديشو)^(٦). والمنطقة بمجموعها كانت تضم ست قرى صغيرة كانت مرتبة بشكل بيتدأ من أعالي النهر بقرية (صوفا أو صوما Souva or Souma) والتي تبعد عن أعالي النهر بحوالي (١٢٠٠م)، ويسكن فيها بحدود (٣٠٠ نسمة)، أو (٦٠٠ نسمة)، باختلاف الملاحظات والمشاهدات التي سجلها الرحالة والمبشرون^(٧). وعملياً كانت كل واحدة من تلك القرى مبنية على منحدر جبلي، كما وكان لكل قرية ملحق بها مجموع من البيوت يسمى (شومبي Choumbi)، وكانت بيوت

تزدوم بها السلطة الدينية المحلية بشرط المشاركة في الأرباح، التي كانت وفي أغلب الأوقات كبيرة بحيث كان هنالك ضرورة لإيداع تلك المبالغ في المصارف. وكانت جولات هكذا مزيفين تصل أحياناً إلى أرمينيا وجورجيا وأوريا، وفي مرّات قليلة تصل إلى أمريكا. بينما المتسولون الإعتياديون من مختلف العشائر والطوائف، أي كان من بينهم أيضاً ممن كانوا ينتمون إلى عشائر تخوما وباز وديز، بينما التياراتيون. وهم سكان تيارى (العليا والسفلى). كانوا أبناء عشيرة مفاخرة بأنهم أقل فقراً، لذلك فأنهم لم يمارسوا الشحادة والتسول، بل ولم يتعودوا على الهجرة المؤقتة (الموسمية). أو الدائمة أيضاً. وأبناء عشيرة باز كانوا يتوجهون عادة إلى سهل الموصل للعمل في بناء الصخور والحجارة المنحوتة، وهذه المهنة تعلموها في مدينة الموصل، كما وكان سهل أورمية الفارسية هو الآخر ميداناً لعمل النساطرة الجليليين كفلاحين خلال فصل الصيف ولممارسة الشحادة شتاءً. ومما يجدر ذكره هنا أن ممارسة التسول والشحادة بتبريرات دينية من قبل جماعة (مار ازي) كانت تتم وفق ضوابط، لذا كان لهذه الجماعة الحق في الذهاب إلى كل الأماكن أما بالنسبة للآخرين فكانوا مشمولين بقواعد محدودة وصارمة في ما يخص مواقع نشاطهم تحاشياً لأي تنافس قد يؤدي إلى مشاكل. للمزيد ينظر: جي بي. تومسون، رحلات خلال فارس وكرديستان وأذربيجان، ترجمة أحمد ناصر، لندن، ١٩٣٣، ص ١٦١-١٦٧.

(١) جورج بيرسي بادجر، النساطرة وطقوسهم، ترجمة عمر توفيق عمر، ج ١، لندن، دار جوزيف للطباعة والنشر، ١٨٥٢، ص ١٩٨.

(٢) ميشيل شفالبييه، المصدر السابق، ص ٧٢.

(٣) المقصود بها هنا هو (مار ازي) التي مر ذكرها في أعلاه، وهذا اللبس أو الخطأ ربما يرجع إلى ضعف اللغة أو مصادر المعلومات التي كان الرحالة والمبشرون الأوربيون يسجلون بها معلوماتهم ويدونها. ينظر: جي بي. تومسون، المصدر السابق، ص ١٩٩؛ والتر هاريس، أيام في كردستان التركية، ترجمة محمد مصطفى أسعد، مراجعة وتقديم، سهيلة محمود محمد، القاهرة، المعرفة والعلوم للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ص ٢٨١.

(٤) ميشيل شفالبييه، المصدر السابق، ص ٧٠؛ ب. ج. كيد، المصدر السابق، ص ٢٢٣.

(٥) العلاقة بين جماهير النساطرة القاطنين منطقة السهول وأولئك المعروفين بالجليليين كان محوراً في بحوث وكتابات الكثيرين، ونتيجة لكل تلك البحوث والدراسات، يظهر أن الجماعتين مشابهتين وعلى الخصوص في ناحية القدم، والدليل هو قدم الكنائس، ومن بين هذه الكنائس نشير إلى كنيسة القديسة (مريم العذراء) في أورمية الموجودة على عمق بضعة أمتار عن مستوى سطح الأرض العادي، والبرهان الآخر هو تأريخ تأسيس الأبرشيات العائدة للنساطرة في كل من أورمية وسلامس (سالماس). للمزيد ينظر:

Justine Perkins, *Aresidence of Eight year in Persia among the Nestorians Christians with Notices of the Muhammedans*, New York, 1843, P. 129.

(٦) John Joseph, Op. Cit, P. 40.

(٧) A.W.Burr, Op. Cit, P. 239; Asahel Grant, Op. Cit, P. 79; Austin Henry Layard, *Discoveries in the Ruins of Nineveh Babylon*, Vol. 2, London, 1927, P. 98.

الملحق مشيدة على حافة مجرى السيل (الرافد)^(١)، ورئيس عشيرة ديز (الملك)، كان يقيم عادة إما في قرية (ريان عوديشو) السالفة الذكر، أو في قرية (ماديس)، وبحسب ما كانت تقتضيه الحاجة، لاسيما في أوقات الصراعات والنزاعات مع الأكراد^(٢). وأراضي موطن سكن العشائر النسطورية لم تكن تضم دوماً تجمعاً شعبياً مسيحياً متجانساً تماماً، وذلك لأنه كان هناك قرى كردية في منطقة سكن أغلب تلك العشائر، وهو ما أكده خط مسيرة أغلب الرحالة والمبشرين والقناصل، والتي بينت وبكل وضوح وجود تشابك حقيقي بين قرى النساطرة والأكراد وفي وادي الزاب الكبير، لاسيما الضفة اليمنى منه، ومنطقة تيارى العليا، وأحياناً كان هذا التشابك مضلاً بمضلة الأمن والسلام^(٣).

أما أراضي موطن سكن جماعات الرايا (أي الذين لا يتبعون تنظيماتاً عشائرياً)، فإننا نجد أنه وعلى الرغم من أن الإختلاط بين أبناء العشائر والأكراد كان حالة شاذة، نجد الحالة مغايرة بين القرى المسيحية والكردية لجماعات الرايا، إذ إن الإختلاط في الحالة الثانية كان من مميزات المناطق التي تتواجد فيها قرى من هذا النوع، لكن رغم ذلك فإن الإحتفاظ بنظرة التعالي والإستغلال كانتا قائمتين، لاسيما من جانب الأكراد^(٤). ومع كل ذلك فإن اختلاط الأكراد بجماعات الرايا من النساطرة والسكن في قرية واحدة - ورغم ندرة حصوله - لم يكن بالأمر الشاذ إذا ما حصل، إذ أن هذا التجاوز المتأني دون شك من تغلغل الأكراد في المنطقة واغتنابهم وسيطرتهم على الأراضي أدى إلى اضعاف موقف النساطرة ووضعيتهم بشكل عام^(٥). من خلال ما تقدم يمكن القول إن النساطرة الذين يعيشون حياة مختلفة مع المجاورين لهم، وأغلبهم مسلمين، وبسبب طبيعة الحياة التي عاشوها فإنهم ظلوا ولفترات طويلة يحاولون التوفيق بين الحوافز الدينية المقدمة لهم وبين التعنيف الأدبي الذي غير مجرى حياتهم.

ثانياً: علاقة النساطرة بالأكراد

عاشت جماهير النساطرة في كردستان كنواة مسيحية قديمة سليمة معافاة، ثم نمت وتكاثرت في أزمنة ماضية استوطنت مناطق السهل ومن ثم المناطق الجبلية المجاورة^(٦). وتعايش هؤلاء النساطرة (العشيرت، والرايا) مع الأكراد، والذين كانت امتدادات استيطانهم باتجاه الجنوب والغرب، تعايشوا في أزمنة قديمة أيضاً، مما يدل وبوضوح على التشابه في نوعية الحياة التي عاشتها عشائر النساطرة ومثيلاتها الكردية، الأمر الذي يقودنا بالتالي إلى استنتاج سؤالاً واقعياً مفاده هو: هل أن الجماهير النسطورية التي استوطنت الجبال العالية (دون الأخذ بنظر الإعتبار لغتها ومعتقداتها)، تم امتصاصها من الأوساط الكردية؟ أم على العكس علينا التعامل مع قبائل أصولها كردية نضجت مبكراً واتخذت لها لغة وديناً وفداً عليها من جهة السهل؟^(٧).

إن التعايش القائم بين الأكراد والمسيحيين (النساطرة) منذ أواخر القرون الوسطى، أي منذ انسحاب السريان الشرقيين نحو شمال بلاد ما بين النهرين وسهل أورمية وحافات الجبال الشمالية، يشكل لتلك الجماعة حالة مأساوية تاريخياً، نظراً لما عانته من بؤس وقهر خلال فترات الإبادة شبه التامة التي تعرضت لها، وإن قيام علاقة بين ملجأ المسيحيين والوكر الكردي، لم يكن حدثاً حصل بالصدفة، لأن الجماعات الأولى من النساطرة المسيحيين استوطنت ملجأها المتمركز في الجبال وما حواليتها، بينما موطن الأكراد يتمركز أصلاً في الجبال وسفوحها السهلية^(٨). وفي الجزء الشمالي من كردستان يوجد التجمع الرئيس لجماهير النساطرة الجبليين، وتكون هذا التجمع ومنذ القرن السادس عشر، على أثر وضع الإتفاق المبرم بين الإمبراطوريتين الفارسية والعثمانية موضع التنفيذ وبشكل نهائي، وكننتيجة

(١) John Joseph, Op. Cit, P.112.

(٢) ميشيل شفالييه، المصدر السابق، ص ٧١.

(٣) Evand Elie, Event in Kurdistan 1878-1914, London, 1945, P.88.

(٤) عبد الرحمن قاسم، الأكراد وكردستان، بيروت، مطبعة علوم للدراسات والنشر، ١٩٨٩، ص ١٤٧.

(٥) ميشيل شفالييه، المصدر السابق، ص ٧٨.

(٦) أوستن هيربيرت هنري، مخيم اللاجئين في بعقوبة، ترجمة يعقوب دنها، لندن، مطابع فاييز للنشر، ١٩٢٠، ص ١٠٤.

(٧) إن كثافة النساطرة تقل تدريجياً كلما اتجهنا من المركز إلى المحيط، والبقعة التي قطنها هؤلاء المسيحيون كانت بحدود (٢٠٠ ألف كم^٢)، وهي تمتد من غرب ماردين إلى أورمية، ومن منطقة وان إلى الموصل بإستثناء القطاع الغربي الذي بقيت فيه الأوضاع هادئة، ولم يبق لهذه المنطقة وقبل عام ١٩١٤ سوى سديم (السديم: مجموعة النجوم البعيدة والتي تظهر وكأنها سحابة دقيقة ومتلألئة) يرتبط بنواة منيعة متمثلة بالموطن الحصين (حكاري). للمزيد ينظر: جي. أم. كيرلي، موارنة قبرص، ترجمة لوليان حتي، باريس، مطبعة دون بوسكو، ١٩٩٨، ص ٣٧.

(٨) ديفيد رابلي، المصدر السابق، ص ٨٢.

لذلك الإتفاق والتنظيم، أصبحت المنطقة إمارات كردية، وتلك الإمارات لم ترتبط بالباب العالي حتى منتصف القرن التاسع عشر إلا بروابط ضعيفة جداً، قوامها طاعة رخوة، وعملياً كان واجب هذه الإمارات التي اشتهرت بإجادة القتال، وتوفير الحماية العسكرية الدائمة للإمبراطورية العثمانية والبقاء سداً منيعاً أمام الجيوش الفارسية^(١). والإقطاعيون الأكراد لم يتم إخضاعهم بشكل نهائي إلا في السنوات التي سبقت عام ١٨٥٠ بقليل، وبقي الرؤساء الأكراد يتمتعون وحتى سنوات الحرب العالمية الأولى بسلطة تشبه وضعية (الحكم الذاتي)، وذلك بسبب الصعوبات الصعبة والقاهرة التي كانت تواجه العثمانيين كلما كانوا يرغبون بفرض سيطرتهم على الجبال الشاهقة (وكر الأكراد وموطنهم)^(٢). يمكن القول ان الحفاظ على الإقطاع الكردي المتسلط، لم يكن فقط من أجل حماية الظهر من الفرس، بل أيضاً لجعله أداة فعالة لإخضاع جماهير المسيحيين التي لا تؤمن وبخاصة النساطرة والأرمن منهم.

والمشكلة الأتنية الكردية في واقع الحال أقدم بكثير من التجذر المسيحي في كردستان، والذي يتجاوز تأريخه القرن الرابع، فمنطقة بوتان والمعروفة قديماً باسم (كوردین Gordyene)، والواقعة بين نهري دجلة وبوتان صو، تعد الموطن الأصلي للأكراد^(٣). ومن المؤكد فإن الوكر الكردي الأصلي كان يمتد بعيداً في الجهات الشرقية وأعلى نهر الزاب الكبير حتى يصل مرتفعات حكاري، وفي تلك المناطق ومنذ القرون الوسطى وحتى الحديثة بضمنها أخذ الأكراد في الإنتشار متقدمين نحو المناطق المتاخمة لموطنهم الأصلي^(٤). واعتمدت حياة الأكراد وحتى منتصف القرن التاسع عشر على أسس قوامها النظام العشائري(القبلي)، وبتنامي القبيلة وازدياد عدد أبنائها حصلت حاجة للتوسع، ونتيجة ذلك التوسع، فإن تسميات لمناطق كثيرة تغيرت خلال مراحل معينة، رافقه حصول تميز واضح بين الإتحادات الرئيسية، والقبائل الأساسية ثم الثانوية وأخيراً الأفخاذ، وإن الإتحاديين الكبارين المتكونين(Mokris، الذين سكنوا جنوبي بحيرة أورميه، والميليين Millis، الذين سكنوا المناطق بين ماردين وأورفا)، استطاعا وتمكنا من ضمان حماية جموعهم باحتمائهم بجبال النساطرة(حكاري شرقي نهر الزاب الكبير وجبال الأرتوشيين الواقعة غربي النهر وحتى مناطق بوتان)^(٥). وإن أغلب القبائل التابعة لهذين الإتحاديين كانت تعيش حياة شبه بدوية (حياة الرحل)^(٦). مع ملاحظة أنه كان هناك قبائل كانت تعيش حياة بدوية صرفاً، ومن تلك القبائل نخص(الهركيين)، وأمثال هذه القبائل استطاعت التعايش مع الآخرين، وكانت تنتقل صيفاً ذاهبة مسافات بعيدة حيث سهول ما بين النهرين الشمالية ومراعيها العالية في جبال طوروس، وأحياناً كان هناك من يصل بلاد فارس، وتميزت تلك القبائل بأبنائها المقاتلين المرعبين بسبب أعمال السلب والنهب التي يرتكبونها، غير إن المجموعات المستوطنة للأراضي، أو تلك التي كانت تعيش حياة شبه بدوية(التي كانت تنتمي إلى مجموعات الأكراد غير المنتمين إلى قبيلة ما)، كان بناؤها السياسي أو بالأحرى الإقطاعي يتطابق وبشكل غير تام مع النظام العشائري^(٧).

كانت الجبال الكردية عند بداية القرن التاسع عشر في الجانب العثماني مقسمة إلى تسع إمارات كردية أصلية، وكان الرؤساء في هذه الإمارات يحملون لقب (باشا)، وكان هناك وإلى جانب هذه الإمارات إمارات أخرى جنوبية عرفت ب(السوران)، ووصف رؤساء

(١) المصدر نفسه، ص ٩٤.

(٢) Frederick. G. Coan, Yesterday in Persia and Kurdistan, Claremont (Calif), 1939, P.239.

(٣) Walter Harris, Wandering in Persian Kurdistan, Vol.2, London, 1895, P.112.

(٤) ديليو.أي. ويكرام وادكار.تي.أي. ويكرام، المصدر السابق، ص ١٤٧.

(٥) ف. ب. باركييف، كردستان منطقة الصراعات المخفية، ترجمة رشيد طاهر أركناس، أنقرة، مؤسسة ليزان للنشر والطباعة، ٢٠٠٠، ص ٤٨.

(٦) الإختلاف الديني واللغوي بين الأكراد والنساطرة لم يلعب دوراً مهماً في حياتهما، فالشعبان بقيا يعيشان جنباً إلى جنب في تفاهم تام، وكانت علاقة كل منهما بمختلف الفرق المكونة لكل شعب من الشعبين جيدة وحسنة، ومع مرور الزمن حصل للأكراد تفوق عددي بين العشائر النسطورية والقبائل الكردية، والإختلاف الديني لم يكن له أثر ملحوظ على طرفي الإتفاقيات. فقد تمتعت بفضل عزلتها بنوع خاص من الوجود والكيان. وأختلف عن ذلك الذي عاشه المسيحيون الشرقيون الآخرون أو الجماهير أصحاب الكتاب والتي كانت خاضعة لنظام وضعته الدولة العثمانية عرف ب(الملت)، والسلطات العثمانية كانت دوماً تحت القوى الإسلامية المركزية على تجاهل وجود هذه الأقلية طالما لا تمثل أي خطر على الدولة أو تسبب لها المشاكل، لكن بعد وصول المبشرين الأجانب الغربيين استيقظت الروح القومية وخاصة بعد أن لعبت القوى العظمى أدوارها الحاسمة في تقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية، وكل هذه الأمور كان لها تأثيراً سلبياً في حياة النسطوريين. للمزيد عن ذلك ينظر: نوشيروان مصطفى، كردستان، ترجمة صالح أمين، دمشق، مطبعة الشهيد إبراهيم عزو، ١٩٧٨، ص ٤٦-٤٧.

(٧) ف. ب. باركييف، المصدر السابق، ص ٦١.

الأكراد في بيتليس المتمركزين غربي بحيرة وان وحكاري وبوتان (جزيرة ابن عمر)، ويهدينان (العمادية)، بأنهم متحدين وفق نظام معقد من التبعية والتوالي الوراثي^(١).

ونتيجة للإضطرابات التي واجهت الإمبراطورية العثمانية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، انفجرت في الإمارات الكردية سلسلة من الثورات، التي تطور وضوحها شيئاً فشيئاً وهدفها كان إقامة نظام دستوري ملكي كردي مستقل، وأهم تلك الثورات كانت ثورة الأمير محمد الراوندوزي (١٨٣١-١٨٣٦)، وتلك التي قام بها بدرخان أمير بوتان (١٨٤٤-١٨٤٧). ولم تكن تقف قوات الإمبراطورية العثمانية مكتوفة الأيدي أمام الثورات الكردية المشار إليها في أعلاه، وانها واجهتها بعنف وقوات عسكرية مضادة قادها رجال عثمانيون أمثال (حافظ باشا، ورشيد باشا، وعثمان باشا)، والهجوم العثماني أدى إلى وضع نهاية للإمارات الكردية، وعضواً عنها قام العثمانيون بتأسيس إدارة عثمانية مباشرة في المناطق الكردية عرفت معالمها بالباشوية، ومن ثم سميت ولاية حكاري، وكان مركز ادارتها في الباشقلعة، والتي سبق وإن كانت في الماضي مركزاً للإدارة الكردية، ثم بعد ذلك صارت سنجقاً تابعة لولاية (وان)، ووفقاً للتدرج الإداري المعمول به آنذاك، وكان هناك أيضاً منصب القائم مقام الذي يتمتع من يشغله بصلاحيات متهاودة، وعادة كان القائم مقام يسكن المركز الذي فيه كثافة سكانية عالية ويقع في مختلف المناطق الجبلية^(٢).

ثالثاً: الجبال هي الفاصل بين الأكراد والنساطرة

إن مركزي حكاري الذين أحدهما كان يتميز بنظام إقطاع تتركز إدارته في جولاميرك، والآخر المركز الديني في قوجانيس، والذي كان خارج نطاق إدارة منطقة العشائر، وكانا يقعان على الضفة اليمنى من حوض معلق على علو شاهق يتجاوز البضع مئات من الأمتار عن مضيق مجرى نهر الزاب الكبير. والنواة التي كانت تمثلها جولاميرك (التي تدعى اليوم حكاري، وبالسريرية جومال، والأرمنية لأيلمار)، تتكون وحسب ما كانت عليه عند نهاية القرن التاسع عشر قلعة وقصر أصبغا خريات كانا يعودان لأمرء الأكراد، والقلعة مشيدة على علو يصل (١٧٠٠م) عن مستوى سطح البحر، وكانت تطل على السوق (القوناغ) العثماني، والقوناغ بحسب المفهوم العثماني يعني بناية الإدارة والشؤون العسكرية^(٣). وبالقرب منه كان هناك ضيعتان صغيرتان يسكنها الأكراد، ومنطقة خاصة بسكنى الأرمن تدعى باكان، لم تكن تضم مسيحيين نساطرة رغم أن الموقع كان مركزاً تأتيه كل العشائر النسطورية لغرض التجارة وتمشية قضاياهم المدنية^(٤). ومن هضبة جولاميرك ينفذ واد إتجاهه شمالي جنوبي نازل من الجبل، وتنتشر في أرجاء هذا الوادي سبع قرى كردية متجاورة وخمس قرى أرمنية ونسطورية، وتبعد قوشانس (بالتركية قوجانس) بمسافة (٢٠ كم) عن جولاميرك إلى الناحية الشمالية الشرقية منها، ويفصل بين الإثنين ممر جبلي، وفي بداية القرن العشرين كان يوجد في قوجانس حوالي المائة بيت، كما وكانت قرية قوجانس على إتصال مباشر مع مناطق سكنى جماعات (الرايا)، ففي الناحية الشمالية الشرقية من الأراضي التي سكنتها عشائر النساطرة، تواجدت قرى نسطورية كانت تعود لجماعات (الرايا)، وكانت تلك القرى مبعثرة بين قرى الأكراد المعروفين بالأرتوشي، والتي كان محل سكنهم يتمركز في وادي (لويين Lewin)، في منطقة (نوردوز)، ومنطقة لويين عبارة عن هضبة مرتفعة ذات انحدارات هادئة، اشتهرت بخصوصية أراضيها، ويسقيها رافد يجري على الضفة اليمنى من الزاب الكبير، وهذا الرافد يلتقي بنهر الزاب ويصب فيه من خلال مضيق وعر، وهنا كان يوجد حوالي الثلاثين قرية منها: ثمانى قرى تعود للنساطرة، والباقية تعود للأكراد، علماً أن منطقة نوردوز تقع في الشمال البعيد وخارج حوض نهر الزاب الكبير عند أعالي نهر بوتان صو، الذي يعتبره الأرمن مجرى علوي لنهر دجلة^(٥).

وفي الجهات الشمالية الشرقية من موطن العشائر النسطورية، كانت هناك منطقة مزدحمة بجماهير النساطرة من ذوي التجانس المتشابه (العشيرت، والرايا)، وهذه المنطقة هي سهل كافار الواسع والواقع على إرتفاع (٢٠٠٠ م) عن مستوى سطح البحر، وانتشرت في

(١) ف. ف. مينورسكي، الأكراد ملاحظات وانطباعات، ترجمة معروف خزندار، بغداد، ١٩٦٨، ص ٤١.

(٢) ف. ب. باركييف، المصدر السابق، ص ٧٦-٧٧.

(٣) Frederick.G.Coan, Op. Cit, P.257.

(٤) Ibid, P.264.

(٥) W.Ainsworth, Travels and Researches in Asia Minor, Mesopotamia, Chaledea and Armenia, Vol.2, London, 1942, P.137.

ربوع هذا السهل خمس وعشرون قرية أغلبها قرى نسطورية ومعها قرى أرمنية وكردية، والقرى الكردية كانت تقع على المحيط وحول قرى النساطرة والأرمن، حيث امكانية الإتصال بالقرى الكردية المنتشرة على السفوح والمنحدرات^(١). وكانت القمم الجبلية مكللة بغطاء تلجي منظره مدهش ومكوناً تلاجيات جبلية تشبه تلاجيات جبال الألب الشهيرة إلى حد ما، غير إن هذا بالنسبة إلى الجهة الأمامية من جبال جيلو، وبصورة معاكسة للوضعية بالنسبة إلى السهل الزراعي، وكان هناك عدد قليل من النساطرة (حوالي العشر عوائل)، منتشرين في القرية الرئيسية لمركز منطقة كافار، وهي قرية (ديزي)، والتي يطلق عليها اليوم منطقة (أوكس كوف)، وقسم كبير من سكان هذا المركز الإداري والتجاري الواقع عند أقدم الممرات الجبلية المؤدية إلى أورميه، كانوا يترددون على سوق ديزي، فضلاً عن العديد من التجار الأرمن واليهود القادمون من ولاية وان ومن بلاد فارس^(٢).

وتمتاز منطقة بوتان بأنها منطقة جبلية، وتعد بوتان المنطقة المجهولة من جبال النساطرة، إذ لا يعلو جبالها جبال أخرى، وهذه المنطقة لا زالت وإلى الآن مجهولة المعالم بالنسبة لأغلب الأوربيين الذين زاروا مناطق كردستان الواسعة، والسبب في ذلك هو وحشية القبائل الكردية، فقد ذكر أحد الرحالة المبشرين أنه والقنصل البريطاني في ولاية وان العثمانية رفضا وفي عام ١٨٤٧ زيارة منطقة بوتان، لأن تلك الرحالة كان تستوجب توفير سريتين من الجند لمصاحبتها وحمايتها من أكراد بوتان في أثناء رحلة السير للمنطقة، علماً أن أكراد بوتان ينتسبون إلى الإتحاد الكردي الكبير في بهدينان^(٣).

وتشكل جبال طوروس التي يسكنها الأكراد والنساطرة منطقة متميزة فيما يخص بناء المساكن المبنية بالحجارة والصخور، وليس هناك من فرق يذكر بين بيوت الأكراد والنساطرة في هذه المناطق سوى بعض النقاط التفصيلية المستندة إلى تقاليد شعبية خاصة، والمفردة (بيت) تعني باللغة الأرمنية المكان المُعد للحياة والمعيشة والراحة، وهذا المعنى هو المقصود والهدف عند الجميع وكذلك لغوياً أي بالنسبة للغة الكردية والأرمنية الحديثة (المحكية)، وواقعياً هذا النوع من المساكن يخرج بأسلوبه عن اطار الإسلوب التقليدي لبيوت الأرمن الإعتيادي، وفي المناطق الجبلية فإن نموذج البيت الكردي هو السائد تقريباً^(٤). وبيوت النساطرة الجبليون تجمع في مواصفاتها تجانساً وانسجاماً تاماً مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بنوع الحياة التي يعيشها السكان، أي الحياة الزراعية الرعوية، وفي العام ١٨٩٠ كان الطرفين (الكردي، والنسطوري)، يعتمدان على إسلوب السكن الثنائي الشتوي والصيفي، ويعيشون في بيوت قذرة جداً وأنها أقرب أن يكون أماكن للحيوانات من أن تكون مساكن لبشر^(٥). وعلى الرغم من أن النساطرة إندمجوا عمقياً في المجتمع الكردي، إلا إنهم غالباً ما يظهرون عدم تأثر أصالتهم خلال حياتهم ضمن المجتمع الكردي العشائري رغم الميزات الضاغطة الخارجية المحيطة بهم^(٦). وفيما يخص الحياة الزراعية-الرعية، لا يختلف النساطرة عن الأكراد في هذا النشاط إلا في الغياب التام للإنتاج (أي إرتياد الماشية للكلاً في موضعه البعيدة في أعلى الجبال صيفاً، كما أن الأراضي المزروعة العائدة للأكراد الجبلين تظهر بشكل منظم ومشابه لذلك الخاص بالأراضي الزراعية العائدة للمسيحيين النساطرة)^(٧). وذكر أحد الرحالة عند مروره عبر وادي عشيرة تخوما النسطورية، الواقع ضمن مناطق الجبال الكردية، أنه اندهش من جمالية ما شاهده، قائلاً: ان هذه المناطق من أغنى بلاد كردستان^(٨). أما بالنسبة للإدارة الجماعية للأراضي المستزرعة العائدة لجماعة المسيحيين، فإنها تؤثر وتوضح للخلاف الموجود في الإسلوب الزراعي المتبع من قبل الأرمن وسكان الهضاب والسهول العالية، وذلك المتبع في جبال الأكراد والنساطرة، ففي الجبال فإن الفلاح لا يعرف إلا البردعة والمحراث البسيط

(١) ميشيل شفالييه، المصدر السابق، ص ٨٩.

(٢) ديفيد رابلي، المصدر السابق، ص ١١٣.

(٣) ف. ف. مينورسكي، المصدر السابق، ص ٧٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦٣.

(٥) John Joseph, Op.Cit, P.91.

(٦) Ibid, P.96.

(٧) John Joseph, Op.Cit, P.103.

(٨) عبد الرحمن قاسم، المصدر السابق، ص ١٧٨.

والمجرفة، بينما في سهول كافار وأورميه وسالماس(سلامس)، نرى الفلاحين يستعملون في الأعمال الزراعية في أراضيهم الصلبة عربات محراث ثقيلة تجرها الثيران أو الجواميس^(١).

الخاتمة

- إن العلاقة القائمة بين الأكراد والنساطرة والمتأثرة بطبيعة نشأة الجماعة النسطورية أفضت إلى جملة استنتاجات يمكن إيجازها بالآتي:
١. إن حكاري هي منطقة جبال المسيحيين النساطرة، كانت ولازالت بمعزل عن إهتمام وكتابات المؤرخين والباحثين، وإن ما ذكر عنها ما هو إلا ما كان سائداً من أقاويل وحقائق تفوق غرابتها، وفي بعض الأحيان الأساطير التي تتداولها الأجيال جيل بعد آخر، وأظهرت المنطقة عاصية تصعب الإقامة فيها.
 ٢. عدت منطقة كردستان وخلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، بأنها منطقة نفوذ أنكلوسكسونية، لأسباب جيوسياسية أكثر من أن تكون سياسية، فكانت بلاد فارس وأجزاء من الدولة العثمانية بلداً ملحقة بالإنكليز، لأنها أراضي تتوسط عقدة الطرق الرئيسية، ولهذا وجدنا بريطانيا تحاول زيادة نفوذها فيها من خلال اللعب بورقة الأقليات الدينية كالنساطرة مثلاً.
 ٣. رغم الإلتحام القوي ضمن نسيج الشعب النسطوري المرتبط عضواً بنوع الحياة التي يعيشها وحياته السياسية والإجتماعية والدينية، فإن أغلب الرحالة والمبشرين الذين زاروا مناطقهم اصطدموا وتأثروا بما لمسوه من إختلافات قائمة بين العشائر النسطورية نفسها وبين مجاورهم من الأكراد.
 ٤. نظراً لعدم توفر نتائج احصاءات سكانية رسمية والطابع غير المؤكد للأرقام المستخلصة، فإن الأرقام الواردة في مؤلفات الرحالة والمبشرين. مثلت احصاءات لمؤشرات يمكن الإستناد عليها حتى وإن كان ذلك بشكل مرغم عليه.
 ٥. استطاعت جماهير النساطرة المسيحيين التعايش مع الأكراد المسلمين سواء كانت المعاشة مختلفة (قرى يسكنها الأكراد والنسطوريين سوية)، أو معاشة متجاورة (قرى مستقلة تسكنها جماعة واحدة لكنها متجاورة)، وهو ما يمكن وصفها بصفة بعيدة كل البعد عن التفريق.
 ٦. كان للإختلاف اللغوي في اللهجات تأثيراً كبيراً في قيام التجزئة وتكريس التوقع والتمزق في كيان جماهير النساطرة وعلاقتهم مع الأكراد أكثر مما كان له للأزياء من تأثير.
 ٧. استيطان النساطرة في منطقة حكاري تظهر وبشكل فعلي إن المسيحية دخلت ربوع كردستان عن طريق اهتداء السكان لهذه الديانة منذ أزمنة بعيدة، فكان ذلك على أيدي رهبان ورجال دين أصولهم في الأغلب من مناطق بعيدة.

(١) Ibid,P.117.